الاتصال في العصر الرقمي: ثورة اتصالية أم هيمنة ثقافية؟

____

اعداد

أ. عبد الرزاق أبلال

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز- فاس- المغرب.

ملخص:

ساهم التطور التكنولوجي الهائل في وسائل الإعلام وتقنيات الاتصال في تثوير الفعل الاتصالي، وربط المجتمعات المعاصرة بشبكات اتصال تشترك في نصوص رقمية جعلت منها مجتمع شبكات بامتياز. وإذا كان فعل الاتصال يقوم على ضرورة وجود رموز مشتركة بين المرسل والمستقبل، بهدف إنتاج خطاب يحمل معنى متفقا عليه. فإن هذا الخطاب يتم إنتاجه في مجتمع الشبكات، ضمن المجال الاتصالي الاجتماعي المبني حول الشبكات العالمية- المحلية متعددة الأبعاد. ولأن شبكات الاتصال تربط المحلي بالعالمي، فهي تمثل المصدر الحاسم للمواد الثقافية التي تغذي الأهداف المبرمجة لأي شبكة أخرى، وتصير الثقافة تبعا لذلك صناعة عالمية مفتوحة على التغير والتجدد، ضمن ثقافة عالمية ذات نماذج مختلفة تمثل الفضاء الثقافي الذي يتعين على نظام الاتصال العمل فيه، أو قد تمثل مرايا عاكسة لأشكال الهيمنة الثقافية للمجتمع الرأسمالي والأمريكي على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: شبكات الاتصال، مجتمع الشبكات، التغير الثقافي.

Communication in the Digital Age : Communication Revolution or Cultural Dominance ?

ABSTRACT :

The tremendous technological development in The media and communication techniques has contributed to the development of communicative act and the connection of

modern societies with networks of digital texts which have made a network society with distinction. If the communicative act is dased on the common symbols between the sender and the receiver in order to produce a discourse of a conventional meaning, This discourse is produced in the network community, within the social communicative domain which is built around global multidimentional and local networks. Because of the fact that communicative networks link the local to the global, they represent the crucial source of cultural material which fulfills the programmed planned objectives of any other network. Culture becomes a global industry open to change and reneval. Within a global culture of different models representing the cultural space in which the communication system must operate ; this May reflect the forms of cultural hegemony of capitalist and American society in particular capitalist society.

Keywords: Communication networks, networks society, Cultural Change.

يقوم الاتصال في جوهره على المشاركة في بناء المعنى من خلال تبادل المعلومات. والعملية الاتصالية تحددها تكنولوجيا الاتصال وخصائص المرسلين والمستقبلين للمعلومات ورموزهم الثقافية المرجعية وبروتوكولات الاتصال ونطاق عملية الاتصال، بحيث لا يمكن فهم المعنى إلا في سياق العلاقات الاجتماعية التي تعالج فيها المعلومات وعملية الاتصال.

يعتقد عالم الاجتماع الأمريكي ذو الأصل الإسباني «مانويل كاستلز» أن فهم سيرورة تطور الاتصال في العصر الرقمي وإدراك عمق سلطته مشروط بضرورة التمييز في عملية الاتصال ذاتها بين أنماط ثلاث:

- الاتصال الشخصي: حيث يكون المرسل أو المرسلون والمستقبل أو المستقبلون المقصدون هم موضوعات الاتصال الذي يكون تفاعليا.
- الاتصال الجماهيري التقليدي: قد يكون تفاعليا أو وحيد الاتجاه في الغالب. يتمتع فيه محتوى الاتصال باحتمالية الإذاعة إلى المجتمع بصفة عامة (الرسالة ترسل من طرف واحد إلى كثيرين، كما الحال في الكتب والصحف والأفلام والراديو والتليفزيون). ويمكن إدخال بعض صيغ التفاعل في الاتصال الجماهيري من خلال وسائل اتصال أخرى. فيستطيع الجمهور، على سبيل المثال على البرامج الحوارية في التليفزيون والراديو من خلال الاتصال الهاتفي وكتابة الرسائل وإرسالها عبر البريد الإلكتروني.
- الاتصال الذاتي الجماهيري: يسميه أيضا كاستلز الاتصال المجتمعي، وهو صيغة اتصالية جديدة تفاعلية بين الذات والجمهور. إنه اتصال جماهيري لأن له القدرة على الوصول إلى جمهور عالمي، كما هو الحال في بث مقطع فيديو على موقع يوتيوب، أو على صفحة شخصية ضمن مواقع التواصل الاجتماعي..، وهو في نفس الوقت اتصال ذاتي، لأن إنتاج الرسالة ذاتي وتحديد المستقبل أو المستقبلين يتم ذاتيا، كما أن استخلاص رسائل أو محتوى معين من شبكة المعلومات العالمية وشبكات الاتصال الإلكترونية ذاتي الانتقاء.(مانويل كاستلز،2014، ص 91-92).

هذه الصيغ أو الأنماط الثلاثة للاتصال ليست متراتبة زمنيا وفق تطور تقنيات الاتصال، وإنما هي متفاعلة في نظر كاستلز، تكمل بعضها البعض، ولا تستعيض عن بعضها البعض. لكن الجديد تاريخيا، من حيث نتائجه الخطيرة على التغيير الثقافي والتنظيم الاجتماعي، هو اشتراك كل هذه الصيغ في نص رقمي، له روابط ومتفاعل ومركب، يحتوي ويمزج ويعيد الربط، في تنوعه، بين طائفة كاملة من التعبير الثقافي، ينقلها التفاعل الإنساني.

إن أهم بعد في تقارب الاتصال وتحقيق فاعليته المرتبطة بالسلطة يحدث على مستوى بنية الوعي لدى المستهلكين الأفراد من خلال تفاعلهم الاجتماعي مع الآخرين. فعلاقات السلطة تقوم على حد كبير على تشكيل العقل البشري من خلال بناء المعنى عبر صنع الصورة (كاستلز، 2014، ص 289). فالأفكار في الحقيقة تتشكل في أذهاننا كصور أو خيالات، ذلك أن المعنى المعقول هو عين الشيء الذي يدركه الحس في المحسوس، كما بين ذلك أبو الوليد ابن رشد، حيث الخيالات هي ضروب من المحسوسات للعقل، وهي إليه في مقام المحسوسات عند غيابها، لكنها لا هيولانية (أبو الوليد ابن رشد، 1997، ص 307).

إن صناعة الصورة في عالم الاتصال الاجتماعي، وفي المجتمع المعاصر بما هو مجتمع شبكي في بنيته، تقدم الإعلام الوسيلة الحاسمة في عملية الاتصال، خاصة مع ظهور أنماط ووسائل إعلام جديدة عبر تفاعل التغير التكنولوجي والاتصال، محدثا بذلك مجموعة من التحولات التي يمكن رصدها كالآتي:

أولا، هناك التحول التكنولوجي القائم على رقمية الاتصال، وشبكات الكمبيوتر وبرامجه المتقدمة، وانتشار قدرة نقل المعلومات عبر حزم واسعة معززة، واتصال محلي/ عالمي شامل، عبر شبكات لاسلكية، يتزايد مع حرية استخدام الانترنت.

ثانيا، يشير تعريف المرسلين والمستقبلين إلى البناء التنظيمي والمؤسسي للاتصال، والاتصال المجتمعي منه على الخصوص، حيث المرسلون

والمستقبلون هم وسائل الإعلام وما يطلق عليه الجمهور (الناس الذين يعرفون بأنهم مستهلكو الإعلام). فقد حدث تحول أساسي في هذا المجال في العقدين الماضيين:

- الانتشار الواسع لتجارية وسائل الإعلام في معظم أنحاء العالم.
- عولمة وتركيز نشاط شركات الإعلام من خلال عمليات التكتل والربط بشبكات بينها.
- التقسيم والتعديل والتنوع في أسواق الإعلام مع التأكيد على الهوية الثقافية للجمهور.
- تشكيل مجموعات شركات وسائل الإعلام متعددة الوسائط التي تربط بين كل صيغ الاتصال، بما في ذلك، بالطبع، الإنترنت.
- وتزايد التقارب بين شركات الاتصال وشركات الكمبيوتر والإنترنت وشركات الإعلام.

وتيسر تشكيل هذه الشبكات العالمية للإعلام متعددة الوسائط مع ظهور السياسات الحكومية الداعمة للسوق التي سادت على امتداد العالم منذ الثمانينيات من القرن الماضي، مع ما رافق ذلك من تغيرات مؤسسية تمثلت في سياسات التحرير والخوصصة ورفع القيود المنظمة، قوميا وعالميا.

ثالثا، فالبعد الثقافي لعملية التحول متعدد الطبقات للاتصال يمكن فهمه عند التقاطع بين زوجين من الاتجاهات المتناقضة (لكنها ليست متوافقة): التطور الموازي لثقافة العولمة والثقافات متعددة الهوية، والصعود المتزامن للفردية والجماعية باعتبارهما نموذجين ثقافيين متعارضين، لكنهما على نفس الدرجة من القوة، يميزان عالمنا. وتحدد القدرة أو عدم القدرة على إنتاج بروتوكولات للاتصال بين هذه الصيغ الثقافية المتناقضة إمكانية الاتصال أو سوء الاتصال بين الفاعلين في العمليات الاتصالية المتنوعة. فوسائل الإعلام بدءا من إذاعات التلفزيون المتنوعة الثقافات (الجزيرة بالعربية والإنجليزية، أو سي. إن. إن. الأمريكية أو العالمية أو بالإسبانية، على سبيل المثال)، وصولا إلى ويب2.0، قد تمثل بروتوكولات

للاتصال إما بإقامة جسر بين الانقسامات الثقافية أو بتعزيز التشظي في مجتمعاتنا لتصبح جزرا ثقافية مستقلة وخنادق مقاومة (كاستلز، 2014، ص 93-94).

أخيرا، يمثل كل عنصر من عملية التحول الكبيرة في الاتصال تعبيرا عن علاقات اجتماعية، هي في النهاية علاقات سلطة تمثل أساس تطور النظام الاتصالي متعدد الأبعاد، خاصة إذا علمنا أن وسائل الإعلام والاتصال تعمل على بناء نموذج معين من الخطاب يعكس توجهات ورؤى ورغبات ومطامح الطبقة المهيمنة سياسيا، على اعتبار أن السياسة هي سياسة الإعلام في المقام الأول (كاستلز، 2014، ص 289)، فإن الخطاب كما بين ميشيل فوكو هو ميكروفيزياء السلطة.

أحدثت الثورة الاتصالية انقلابا حقيقيا في بنية المجتمع المعاصر الذي لم يعد يقبل بأن يتم تحليل أحداثه ورصد تغيراته استنادا إلى مقولات سياسية أو اقتصادية أو حتى اجتماعية بقدر ما أصبحت الحاجة ملحة إلى وضع براديغما جديدة، تستند إلى لغة ثقافية تسمح بتناول القضايا الاجتماعية ضمن مجتمع شبكي مفتوح بفعل هذه الثورة المعلوماتية والاتصالية، ذلك أن القضايا الثقافية كما يرى آلان تورين، بلغت من الأهمية حدا يفرض على الفكر الاجتماعي الانتظام حولها (آلان تورين،2011، ص 13). فما وضع الثقافة إذن في مجتمع الشبكات؟

1- الثقافة في مجتمع الشبكات

لكي نهتدي إلى وضع الثقافة في مجتمع الشبكات، ينبغي أن نتبين ما يحتمله مفهوم المجتمع الشبكي من معنى وخصائص، فماذا نقصد بالمجتمع الشبكي؟

في الحقيقة مفهوم المجتمع الشبكي هو عنوان إحدى ثلاثيات عالم الاجتماع مانويل كاستلز » عصر المعلومات: الاقتصاد والمجتمع والثقافة « والتي تتضمن: المجتمع الشبكي، قوة الهوية، نهاية الألفية. وتطلق عبارة المجتمع الشبكي على المجتمعات التي تظهر فيها خصيصتان أساسيتان: الخصيصة الأولى تتمثل في أن هذه المجتمعات توجد فيها تقانة معقدة (على وجه التحديد) من الاتصال وإدارة/ توزيع المعلومات على نحو شبكي، تقانة تشكل البنية التحتية الأساس التي تتوسط عددا متزايدا من الممارسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. أما الخصيصة الثانية

والأكثر غرابة- يقول دارن بارني- في المجتمعات الشبكية فهي إعادة إنتاج الشبكة ومأسستها في كل مكان من المجتمعات الشبكية (وبينها)، باعتبارها الشكل الأساس للتنظيمات والعلاقات الإنسانية، عبر نطاق واسع من الهيئات والجمعيات الأهلية والسياسية والاقتصادية (دارن بارني، 2015، ص 39).

تتألف الشبكات من ثلاثة عناصر أساسية: العقد والروابط والتدفقات. والعقدة هي نقطة محددة موصولة بنقطة أخرى على الأقل، مع أنها، كثيرا ما تكون نقطة ربط بين نقطتين أخريتين أو أكثر. أما الرابط فيصل عقدة بأخرى. في حين يشير التدفق إلى ما يمر بين العقد ومن خلالها على طول الروابط. ومثال ذلك أن نعد مجموعة أصدقاء شبكة، يمثل فيها كل صديق عقدة موصولة صديق آخر على الأقل، لكنها موصولة عادة بآخرين كثر هم كذلك مترابطون على نحو مستقل أو عبر طرف آخر. والاتصال المنتظم بين هؤلاء الأصدقاء، إما بالكلام أو عبر نشاط آخر، وسواء أكان مباشرا أم بواسطة تقانة ما، هو الرابط الذي يصل بينهم، وما يمر بينهم من ثرثرة وصداقة حميمة وتأييد وحب هو الدفق أو التدفق (نفسه، ص 39).

تشير أطروحة المجتمع الشبكي إلى أن عددا متزايدا من الممارسات والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المعاصرة ينتظم حول الشكل الشبكي، حيث التدفقات في ما بين العقد الموصولة بالروابط، مع أن الترتيب الدقيق لهذه الشبكات وخصائصها تتغير بحسب كيفية دمجها هذه العناصر الثلاثة الأساسية المتغيرة. وتعتمد عملية الدمج هذه، بشكل كبير، على الأوضاع المادية والخطابية (أي على السياقات التاريخية) التي توجد فيها هذه الشبكات.

وفقا لكاستلز، يتكون المجتمع الشبكي من شبكات إنتاج وقوة وتجربة من شأنها أن تنشئ ثقافة واقعية افتراضية من التدفقات العالمية التي تتعالى على الزمان والمكان (Castells,1998,p 370). وإذا أردنا تحديد بعض خصائص هذا المجتمع أمكننا القول أنها تتحدد في خمسة خصائص يمكن رصدها بإيجاز على النحو الآتي:

- تقوم أسس المجتمع الشبكي الاقتصادية على اقتصاد رأسمالي «معلوماتي»، بمعنى أنه معاكس للاقتصاد الرأسمالي الصناعي الصرف.
- ينتظم اقتصاد المجتمع الشبكي على نحو عالمي، وعلى غرار شبكي.
- في المجتمع الشبكي، تتحول تجربة الزمان والمكان إلى «زمن لا زمني» وإلى «مكان للتدفقات».
- في المجتمع الشبكي، تتوقف القوة والضعف على النفاذ إلى الشبكة، والسيطرة على التدفقات.
- المصدر الرئيسي للصراع والمقاومة في المجتمع الشبكي هو التناقض بين الطابع اللامكاني للشبكة وتجذر المعنى الإنساني (دارن بارني،2015، ص من 41 إلى 46).

إن هذه الخصائص مجتمعة تمنح المجتمع الشبكي روحا سماها كاستلز بروح المعلوماتية، والتي وصفها بانها» مؤلفة من ثقافات كثيرة، وقيم كثيرة، ومشاريع كثيرة تتقاطع في عقول مشاركي الشبكات المختلفين وتملي استراتيجياتهم، متغيرة بسرعة، ومتبعة ما يطرأ على وحدات الشبكة من تحولات تنظيمية وثقافية. إنها ثقافة بالفعل، لكنها ثقافة العابر والزائل، ثقافة كل قرار استراتيجي، وخليط تجارب ومصالح، أكثر منها شرعة حقوق وواجبات. إنها ثقافة افتراضية متعددة الوجوه... ليست من نسج الخيال، بل قوة مادية تملي وتفرض قرارات اقتصادية مهمة في كل لحظة من حياة الشبكة. لكنها لا تمكث طويلا: تمضي إلى ذاكرة الحاسوب كمادة خام للنجاحات والإخفاقات السابقة. والمشروع الشبكي يعلم العيش ضمن هذه الثقافة الافتراضية. وكل محاولة لبلورة الموقف على الشبكة كشيفرة ثقافية في زمان ومكان محددين تحكم على الشبكة بالتقادم، إذ تغدو أصلب من أن تلائم هندسة المعلوماتية المتغيرة» (Castells,1996,p.199).

بعد هذا التحديد الموجز لمعنى وخصائص المجتمع الشبكي، يمكننا الآن التساؤل عن وضع الثقافة ضمنه. فكيف تتحدد إذن الثقافة في مجتمع الشبكات؟

المجتمعات أبنية ثقافية، والثقافة نسق من القيم والمعتقدات التي تصيغ وترشد وتحفز سلوك الناس (كاستلز، 2014، ص68). وإذا كان هناك مجتمع شبكات عالمي، فإنه يعمل في ثقافات متعددة ويجمع بينها، وهذه الثقافات مرتبطة بالتاريخ والجغرافيا لكل منطقة في العالم. إن مجتمع الشبكات يتطور وفق خلفيات ثقافية متعددة ينتجها تاريخ مختلف لكل سياق. إنها تتجسد في صيغ معينة تؤدي إلى تشكيل أنظمة شديدة التنوع مؤسسيا وثقافيا، ومن ثم فهو عالمي في بنيته، لكنه يحافظ على خصوصيته في كل مجتمع. وينتج عن هذه الحركة المزدوجة من العمومية والخصوصية نتيجتان أساسيتان على المستوى الثقافي.

ففي جانب، تصبح كيانات ثقافية معينة تجمعات صغيرة للاستقلال، وأحيانا متاريس للمقاومة للجماعات والأفراد الذين يرفضون الذوبان كليا في المنطق المهيمن للشبكات في إطار صراع هوياتي، ارتبط بالمراحل المبكرة من تطور مجتمع الشبكات العالمي، مما حرض في نظر كاستلز على أكثر الصراعات السياسية والاجتماعية مأساوية في الآونة الأخيرة.

هكذا، فبدلا من ظهور ثقافة عالمية متجانسة كما يراهن على ذلك كاستلز، استنادا إلى منطق المجتمع الشبكي القائم على تدفق المعلومات وتبادل القيم والمعاني المشتركة في اطار اتصال مجتمعي تفاعلي، فإن ما نراه يعكس قدرا كبيرا من التشظي بدلا من التقارب والتواصل. لكن السؤال الجوهري الذي يفرض نفسه بقوة هو كيف تستطيع كيانات ثقافية بعينها (كونتها عناصر موروثة في تواريخ مفردة وأعيد تشكيلها في سياق جديد) التواصل مع بعضها البعض في مجتمع مفتوح بفعل ثورة وسائل الاتصال الحديثة؟

يجيب مانويل كاستلز على هذا السؤال على نحو فرضي مفاده، أن الثقافة المشتركة لمجتمع الشبكات العالمي هي ثقافة بروتوكولات الاتصال التي تتيح علية الاتصال بين الثقافات المختلفة ليس على أساس الاشتراك في القيم، بل على أساس الاشتراك في قيم الاتصال. بمعنى أن: الثقافة الجديدة ليست مكونة من محتوى، لكن من

عملية، كما هو حال الديمقراطية الدستورية القائمة على الإجراءات، وليس على برامج جوهرية.

الثقافة العالمية ثقافة اتصال من أجل الاتصال. إنها شبكة مفتوحة الطرفين من المعاني الثقافية التي لا يمكن أن تتعايش سويا فحسب، بل تتفاعل وتعدل بعضها البعض على أساس هذا التبادل. ثقافة مجتمع الشبكات هي ثقافة بروتوكولات الاتصال بين كل ثقافات العالم التي تتطور على أساس الاعتقاد الشائع في قوة الارتباط بشبكات وفي التضافر المكتسب من خلال إعطاء الآخرين والأخذ منهم. إنها عملية تجري لبناء مادي لثقافة مجتمع الشبكات (كاستلز، 2014، ص 71).

اتبعت الثقافة في مجتمع الشبكات وفي زمن ثورة الاتصال منطقا آخر مختلفا مع التحول من صناعة الثقافة إلى صناعة الثقافة العالمية ضمن ما صار يصطلح عليه بعولمة الثقافة، فكيف يمكننا فهم التغير الثقافي في عالم العولمة؟

2- التغير الثقافي في زمن العولمة

لكي يتم الاتصال، يتعين وجود رموز مشتركة بين المرسلين والمتلقين. وفي النشاط الإعلامي، حدث تحول استراتيجي من البث إلى جمهور عريض (يفترض فيه القدرة على التعرف على رسالة متجانسة) إلى استهداف جمهور محدد، مما يعني تعديل الرسالة لتلائم المتلقي المقصودن، وهو ما يسرته إقامة شبكة بين الشركات العالمية لوسائل الإعلام والتكنولوجيا الرقمية الجديدة التي تسمح بربط الإنتاج الكبير وتوزيع المحتوى المعدل. ويتطلب تحديد الجمهور فهما لرموزه الثقافية المختلفة. لذا، فتطوير الصيغة والمحتوى الإعلامي، سواء أكان عاما أو محددا، يتوقف على التطور الثقافي للمجتمعات. فلكل مجتمع طريق وإيقاع في مثل هذا التطور. لكن، لأن مجتمع الشبكات عالمي، فهناك عموميات وتعاضد في عملية التحول الثقافي الذي لم يعد مشروطا بتغير البنية الاقتصادية كبنية تحتية كما كان يفهم كارل ماركس، بل صارت الثقافة في عالم اليوم تتسرب من البنية الفوقية وتتسلل، ثم تهيمن على البنية التحتية نفسها. إنها تتحول إلى الهيمنة على الاقتصاد وخبرات الحياة اليومية... في صناعة الثقافة العالمية، الإنتاج والاستهلاك هي

عمليات بناء التمايز (لاش، ليري، 2007، ص 3-5، ذكره كاستلز ضمن كتابه سلطة الاتصال، 2014، ص 191).

كيف يتشكل التمايز؟ ما هي المواد الثقافية التي تتخلل المجالات المختلفة من الخبرة، وتهيكل أطر عمل المعنى الذي يعمل فيه الإعلام؟

يقترح كاستلز للإجابة عن هذه الأسئلة فرضية عملية تدفع في اتجاه اعتبار التغير الثقافي في عالمنا يدور حول محورين رئيسيين ثنائي القطبية: التعارض بين العولمة والهوية، والصدع بين الفردية والجماعية.

تشير العولمة الثقافية إلى ظهور نمط معين من القيم والمعتقدات التي يتم التشارك فيها إلى حد بعيد حول الكوكب.

وتشير الهوية الثقافية إلى وجود أنماط معينة من القيم والمعتقدات ترى جماعات بشرية معينة نفسها فيها. والهوية الثقافية هي – إلى حد كبير- نتيجة التاريخ والجغرافيا للمنظمة البشرية، لكن يمكن أيضا تشكيلها على أساس مشروعات معينة لبناء الهوية . أما الفردية فهي نمط من القيم والمعتقدات التي تعطي الأولوية لإشباع حاجات ورغبات ومشروعات كل ذات مفردة في توجيه سلوك الفرد. في حين تشير الجماعية إلى نمط من القيم والمعتقدات التي تقدم الخير الجماعي للمجتمع. هذا المجتمع الذي يمكن تعريفه هنا بأنه نظام اجتماعي منتظم حول تقاسم نمط فرعي معين من السمات الثقافية أو المادية أو كليهما معا. (كاستلز،2014، ص 191-192). لكن هل هناك بالفعل ثقافة عالمية؟

يمكن رصد حضور هذا الشكل الجديد من الثقافة التي نسميها عالمية، في ثلاثة مستويات. أولا، بالنسبة لأقلية صغيرة من الناس، لكنها مؤثرة، حيث هناك وعي بالمصير المشترك للكوكب الذي نعيش عليه، والذي تمثله الحركات البيئية والحقوقية على سبيل المثال لا الحصر. ثانيا، هناك ثقافة عالمية متعددة الثقافات تتميز بالتهجين وإعادة المزج بين ثقافات من أصول مختلفة، كما هو الحال في انتشار موسيقى الهيب هوب في نسخ معدلة عبر العالم أو إعادة مزج مقاطع الفيديو التي تملأ اليوتيوب. ثالثا، قد تكون أكثر الطبقات أصولية في العولمة

الثقافية هي ثقافة الاستهلاك التي ترتبط مباشرة بتشكيل سوق رأسمالي عالمي قائم على انتشار واسع لثقافة التسليع.

في نفس الوقت، فوجود مصادر مختلفة للهوية الثقافية، يخلق نموذجا معقدا من التفاعل بين الاستهلاكية العالمية الكوزموبوليتانية والتهجين العالمي في جانب، وتنوع مصادر الهوية الثقافية (القومية، والإقليمية، والعرقية، والمتعلقة بالنوع الجنسي، والهويات المنتقاة ذاتيا) في جانب آخر (كاستلز، 2014، ص 192-193).

لما نتأمل في قطبي الهوية الثقافية، نستكشف أربعة ارتباطات مهمة تتجلى في صيغ محددة من النماذج الثقافية، كما يوضحها الشكل التالي:

	العولمة	الهوية
الفردية	استهلاكية الماركات	الفردية المتشابكة
الجماعية	الكوزموبوليتانية	التعدد الثقافي

إن التمفصل بين العولمة والفردية يقود إلى انتشار الاستهلاكية باعتبارها صيغة فردية للعلاقة بعملية عولمة يهيمن عليها التوسع الرأسمالي. وتعتبر الماركات من التجليات المعبرة المهمة بشكل خاص لعلاقة الفردية هذه بثقافة عولمة رأسمالية، كما يطرحها سكوت لاش، وسيليا لوري، وتمثل الماركات بعدا ثقافيا لسوق العولمة، والعملية التي من خلالها يضفي الأفراد معنى لاستهلاكيتهم.

وينبع ربط الهوية بالفردية من ثقافة الفردية المتشابكة التي يعتبرها علماء الاجتماع نموذجا للنشاط الاجتماعي في مجتمع الشبكات. في عصر الإنترنت، لا ينسحب الأفراد إلى عزلة الواقع الافتراضي، بل على العكس، يوسعون نشاطهم الاجتماعي باستخدام ثروة شبكات الاتصال المتاحة لهم، لكنهم يفعلون ذلك بشكل انتقائي، ويبنون عالمهم الثقافي وفق تفضيلاتهم ومشروعاتهم، ويطوعونه وفق تطور اهتماماتهم وقيمهم الشخصية.

وعند التقاطع بين والجماعية والعولمة، نجد ثقافة الكوزموبوليتانية، أو مشروع تقاسم القيم الجماعية على مستوى الكوكب، ومن ثم بناء مجتمع بشري يتجاوز

الحدود والخصوصية لصالح مبدأ أسمى. وهذه بالطبع، حال الأمة الإسلامية، لكنه يمكن أن يمثل أيضا الثقافة البيئية التي تشتغل لصالح مستقبل الجنس البشري، أو ثقافة الكوزموبوليتان التي تؤكد على القيم الجماعية للديمقراطية في فضاء جديد من الجنسية العالمية (بيك،2005).

وأخيرا، فانتشار الجماعية والهوية يؤدي إلى الاعتراف بالهويات المتعددة في عالم تشكله المجتمعات الثقافية المتباينة. وهذا بمثابة اعتراف بالتعددية الثقافية باعتبارها اتجاها حاسما لعالمنا الذي يعتمد على بعضه البعض.

إذن خرجت أشكال ثقافية أربعة من التفاعل بين الاتجاهين الثقافيين الرئيسيين ثنائي القطبية تميز مجتمع الشبكات: الاستهلاكية وتميزها الماركات، الفردية المتشابكة، والكوزموبوليتانية (سواء كانت إيديولوجية أو سياسية أو دينية)، والتعددية الثقافية. وهذه هي النماذج الثقافية الأساسية في نظر كاستلز لمجتمع الشبكات، وهذا هو النموذج الثقافي الذي يتعين على نظام الاتصال العمل فيه (كاستلز، 2014، ص 195-196).

يعتقد كاستلز بعدم وجود اتصال مباشر وحصري بين كل نموذج من النماذج الثقافية الأربعة المحددة آنفا وتقنيات أو صيغ معينة من الاتصال. فالنماذج الثقافية الأربعة ماثلة في الإعلام الجماهيري وفي الاتصال الذاتي الجماهيري، وينطوي جميعها على ممارسات اتصالية عبر طائفة كاملة من التقنيات ومنافذ النقل. لكن، كل واحد من هذه النماذج الثقافية يتكيف بشكل أفضل مع أي صيغة اتصالية قادرة على أن تشكل على الأرجح الرموز الثقافية التي تعظم تأثير الاتصال في عقول الجماهير. بمعنى تأطير عملية الفعل الاتصالي. وهنا يقر كاستلز بعدم هيمنة الثقافة الأمريكية على الثقافة العالمية، رغم القسط غير المتناسب من الاستثمار ذي القاعدة الأمريكية في الصناعات الثقافية، على اعتبار أن العالمي عالمي في عمقه وبنيته. وهذا يعني أن طبقة الثقافة العالمية القائمة حول الاستهلاكية والعلامات التجارية تعالج المنتجات الثقافية من كل المناهل وتنقلها في صورة باقات معدلة

لتعظيم سلطتها الاتصالية في كل سوق مستهدف، كما هو حال صناعة المسلسلات التلفزيونية على سبيل المثال لا الحصر.

إذا كان كاستلز يرفض القول بهيمنة الثقافة الأمريكية على الثقافة العالمية كما بين آنفا، فإن القول بصناعة الثقافة في نظر تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر ينطوي على عملية احتكار للحياة الثقافية- تم فيها إخراج الثقافات المحلية للشعوب الأخرى وإقصاء للأشكال الثقافية الفولكلورية الأصيلة، وذلك بغرض تطوير أشكال متقدمة من السيطرة العقلانية أكثر قوة ونفوذا.

إن الثقافة باعتبارها صناعة جزء من عملية القمع الشمولية في المجتمع في المجتمع الرأسمالي الحديث (Adorno, 1944,p.38). ومع القرن العشرين أصبحت الثقافة جزءا من شمولية متكاملة نجدها متلاحمة بشكل شبه كامل مع الاقتصاد الرأسمالي. وهذا يعني أمرين اثنين، أولهما: أن الثقافة أصبحت الآن عبارة عن آلية تعمل لخدمة الوضع الراهن فحسب. وثانيهما: أن الثقافة أصبحت الآن عبارة عن سلعة ليس إلا. وبالرجوع إلى فكرة «صنمية السلع» الماركسية، أشار أدورنو وهوركهايمر إلى أن المنتجات الثقافية مثل الكتب واللوحات الفنية والعروض الموسيقية لم تكن خاضعة كليا في القرن التاسع عشر للنظام الرأسمالي بغية صناعة الأرباح. لكن ومع دخول القرن العشرين أصبح مبدأ الربح يسيطر كليا على عملية الإنتاج الثقافي. فالآن، عوضا من قراءة المنتجات بعناية أو مشاهدتها أو الاستماع إليها نجد أن المنتجات الثقافية وجدت لتستهلك فقط. وأصبحت قيمتها الوحيدة هي القيمة المادية وما تساويه نقديا بدلا مما تساويه فنيا. ولأن عملية الثقافة باعتبارها صناعة بأكملها تنقل دافع الربح بشكل مكشوف إلى الأشكال الثقافية. أصبحت الثقافة اليوم عبارة عن عملية اقتصادية جامدة وواسعة النطاق، بدلا من أن تكون منفصلة نسبيا عن الاقتصاد (ديفيد إنغليز-جون هيوسن، 2013، ص 74).

خاتمة

هكذا يتبين لنا أن ثورة الاتصال في العصر الرقمي ساهمت بشكل كبير في تثوير الفعل الاتصالي، وانتشار عالمي لأنماط اتصالية جديدة، بما في ذلك الاتصال الذاتي الجماهيري، وهي ثورة اتصالية حولت المجتمع المعاصر إلى مجتمع شبكات، أصبح فيه جمهور وسائل الإعلام فاعلا اتصاليا حقيقيا، تتزايد قدرته كل يوم على إعادة تعريف العملية التي يشكل الاتصال المجتمعي فيها ثقافة المجتمع الكوزموبوليتاني، بما هي مزيج وتلاقح بين الثقافات المحلية والعالمية في نظر كاستلز، أو تعبير عن هيمنة منطق الربح وآلية للسيطرة والتبعية ونشر ثقافة الرأسمالية الاحتكارية في نظر تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر.

قائمة المراجع:

1-أرمان وميشيل ماتلار: تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة: د. نصر الدين العياضي، د. الصادق رابح، ط 1، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.
2-إنغليز ديفيد وجون هيوسون: مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة: لما نصير، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.
3-بارني دارن: المجتمع الشبكي، ترجمة: أنور الجمعاوي، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.
4-بن رشد أبو الوليد: الشرح الكبير لكتاب النفس لأرسطو، نقله من اللاتينية إلى العربية إبراهيم غربي، المجتمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 1997.
5-تورين آلان: براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، ترجمة: جورج سليمان، ط 1، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.
6-كاستلز مانويل: سلطة الاتصال، ترجمة وتقديم: محمد حرفوش، ط 1، المركز القومي للترجمة، 2014.
7-ناش كيت: السوسيولوجيا السياسية المعاصرة، العولمة والسياسة والسلطة، ترجمة: د. حيدر حاج إسماعيل، ط 1، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، 2013.

8_ Adorno and Max Horkheimer. Dialectic of Enlightement. London : Verso, 1992 (1944).
9_ Castells, M. End of Millennium .Oxford : Blackwell, 1998.
_ The Power of Identity. .Oxford : Blackwell, 1997.
_ The Rise oft he Network Society. .Oxford : Blackwell, 1996.